لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ ــ دعوة الأشقاء ..

تطلّع مدير المخابرات المصرية الجديد فى هدوء ، إلى الشاب الوسيم ذى الملامح الشرقية ، الذى يقف فى ثبات واحترام أمامه ، ثم هبط ببصره يمرّ بعينيه فوق بضعة سطور من برقية تحمل طابعًا خاصًّا ، عاد بعدها إلى تأمُّل الشاب الهادئ ، قبل أن يقول فى هدوء لا ينمّ مطلقًا عما يعتمل فى نفسه :

ــ ولماذا يصرُّ جلالة ملك (المغرب) على اختيار العقيد (أدهم صبرى) بالذات أيها الرائد ؟

تنحنح الشاب الوسيم ، وقال فى نبرات واضحة تحمل اللّكنة الشرقية :

ــ لقد سبق لنا الاستعانة بسيادة العقيد (أدهم صبرى) فى مرة سابقة ، إبّان عمل مدير المخابرات السابق ، ووزير الدفاع الحالى يا سيّدى(*) .. ولقد أظهر من

(*) راجع قصة (عملية مونت كارلو) .. المغامرة رقم ١٤ .

الكفاءة ما دفع جلالة الملك إلى طلب معاونته هذه المرة أيضًا .

صمت مدير المخابرات لحظة ، وكأنه يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول :

ـــ كان من المفروض طلب معاومة المخابرات المصرية فقط ، وعلينا نحن اختيار الرجل المناسب .

قال الشاب الوسيم ، فى لهجة تحمل الاعتذار المهذب :

ـــ تقبَّل أسف المخابرات المغربية يا سيِّدى .. إنه خطؤنا نحن .

ساد الصمت لحظة ، إلا من صوت جهاز التكييف الهوائى ، الذى يحمى جوّ الغرفة من الحرارة الشديدة خارجها ، ثم ابتسم مدير المخابرات المصرية ، وقال :

ـــ لا داعى للأسف أيها الرائد .. مصر دائمًا فى خدمة أشقائها العرب .

ثم رفع سماعة الهاتف ، وقال فى هدوء ، وبلهجة آمرة :

ـــ أبلغ العقيد (أدهم صبرى) بموافاتى فى مكتبى فورًا .. أخبره أن الأمر عاجل وهام .

* * *

جفَّف (أدهم صبرى) العرق الغزير الذى يسيل على جبينه ، وابتسم وهو يتطلّع إلى وجه (قدرى) البدين ، الذى غرق وسط شلال من العرق ، وقال فى لهجته الساخرة التى اعتادها (قدرى) :

ـــ أما آن لك أن تصلح جهاز التكييف فى حجرتك أيها البدين ، قبل أن نفتقدك يومًا ، ونكتشف أنك قد تحوَّلت إلى بحر من العرق .

قهقه (قدرى) ضاحكًا ، واهتزَّ جسده البدين كعادته وهو يقول :

ـــ سيكون ذلك مؤسفًا ، فأنا لا أجيد العوم .

ابتسم (أدهم) فى خبث ، وقال :

ـــ لا عليك يا صديقى .. يكفى أن تترك جسدك البدين حرًّا ، وسيطفو وحده كما يحدث للبوارج الضخمة .

عادت ضحكة (قدرى) تجلجل فى حجرته ، لتختلط برنين الهاتف الداخلى ، فأسرع يلتقطه قائلًا فى لهجة سريعة :

ــ هنا (قدرى) من المكتب رقم (سبعة) .. من المتحدِّث ؟

وصمت لحظة استمع خلالها إلى محدِّثه ، ثم قال فى هدوء :

ــ سيكون هناك فورًا يا سيِّدى .

وضع السمَّاعة وهو يجفِّف عرقه ، ويلتفت إلى (أدهم) قائلًا :

ــ إنهم يطلبونك يا صديقى .. المدير شخصيًّا يطلبك .

نهض (أدهم) فى نشاط ، وأسرع يغادر الغرفة ، وهو يقول ضاحكًا :

ــ أصلح جهاز التكييف فى المرة القادمة يا صديقى ، قبل أن تحدث الكارثة ، وتتحوَّل إلى شاب رشيق من كثرة ما تفقده من الماء .

وأغلق الباب خلفه قبل أن تكتمل ضحكة (قدرى) ، وأسرع يصعد فى درجات سُلَّم مبنى المخابرات المصرية إلى

الدور الرابع ، حيث مكتب مدير المخابرات ، وهو يلقى تحيَّاته فى بشاشة على كل من يقابلهم فى طريقه ، حتى توقَّف أمام مكتب المدير ، فعدَّل من هندامه بسرعة ، وطرق الباب فى هدوء ...

أتاه صوت مدير المخابرات يطلب منه الدخول ، فدفع الباب ، وخطا داخلًا وهو يقول :

ــ العقيد (أدهم صبرى) فى خدمتك يا سيِّدى .

ثم توقَّف وتهلَّلت أساريره ، حينما وقع بصره على الشاب الوسيم ، الذى نهض مرحِّبًا ، وفوق شفتيه ارتسمت ابتسامة أنيقة ، فاندفع (أدهم) نحوه وعانقه فى سعادة قائلًا :

ــ الرائد (محمد) .. كيف حالك يا صديقى ؟ .. إننا لم نلتق منذ (عملية مونت كارلو) .

صافحه الرائد (محمد) قائلًا :

ــ لقد كنت رائعًا حينذاك يا سيِّدى .

قطع مدير المخابرات لقاءهما الحار ، وهو يقول فى هدوء :

ــ المخابرات المغربية تطلب معاونتك يا (ن ــ ١) .

تطلَّع (أدهم) إلى الرائد (محمد) فى دهشة ، وقال :

ــ عجبًا .. إن المخابرات المغربية مشهود لها بالكفاءة يا (محمد) .

أومأ الرائد (محمد) برأسه موافقًا ، وقال :

ــ الأمر لا يتعلَّق بالكفاءة يا سيادة العقيد .. إنه يتعلَّق مثل المرة السابقة بالحاجة إلى دم جديد .. رجل غير معروف ولا ينتمى إلى جهاز مخابراتنا .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ــ هل انشق رجل آخر من رجالكم هذه المرة أيضًا ؟

ابتسم الرائد (محمد) ابتسامة هادئة ، وقال :

ــ ليس من الممكــن حدوث هذا فى أى جهــاز للمخابرات أكثر من مرة واحدة ياسيادة العقيد .. إنما الأمر فى هذه المرة يتعلَّق برجل ذى مكانة اقتصادية كبيرة ، يعرف رجال مخابراتنا جميعهم .. ولنقل إنه قام بتدريبهم يوما ما ، قبل أن تكشف تحرِّياتنا ما دفعنا إلى اتخاذ موقف الخصم منه .

قال مدير المخابرات فى هدوء :

ــ اجلس يا (ن ــ ١) ، وسأقص عليك الأمر كما فهمته من حديث الرائد (محمد) ، ومن البرقية الشفرية التى أرسلها جلالة ملك (المغرب) .

وما أن استقر المجلس بـ (أدهم) ، حتى تنحنح مدير المخابرات ، وقال :

ــ يتعلَّق الأمر بانتشار تجارة المخدرات فى الآونة الأخيرة داخل المملكة المغربية إلى حدٍّ بات يهدِّد الأمن القومى ، والتقدُّم الحضارى هناك .. ولقد نشطت أجهزة الشُّرطة المغربية ، فى محاولة لإيقاف هذا السيل من السموم ، ولكن محاولاتها باءت بالفشل عدة مرات ولعدة أسباب ، ليس من بينها ما يمس مهارة أو كفاءة رجال الشرطة أنفسهم ، ولا ضعف وسائلهم ، مما أدَّى إلى اعتقاد قوىّ بوجود شخص ذى مكانة خطيرة يرأس هذه العملية المدمِّرة .. وهنا تدخَّل جهاز المخابرات المغربى بحكم الخطورة الشديدة للأمر .. ولمَّا كانت الإمكانات المتوافرة لأجهزة المخابرات تفوق دائمًا

تلك التى تتوافر لرجال الشرطة ، فقد وضعت المخابرات المغربية يدها على الخيوط الرئيسية للعملية .. ولكن ذلك زاد الأمر تعقيدًا .. فالرجل الذى اتجهت إليه نهايات الخيوط اقتصادى كبير ، له مكانة مرموقة هناك ، مما يحتاج إلى دليل قوىّ للغاية قبل إلقاء القبض عليه ، وإلّا ظن الشعب المغربى أنها محاولة للإيقاع بالرجل سياسيًا واقتصاديًا .

سأل (أدهم) فى هدوء :

ـ وهذا يحتاج إلى رجل من خارج جهاز المخابرات المغربى بالطبع ..أليس كذلك ؟

أكمل الرائد (محمد) حديث مدير المخابرات ، قائلًا :

ـ بلى ، يا سيادة العقيد .. إننا نحتاج إلى رجل يمكنه العمل بمفرده ، وتحقيق نتائج إيجابية فعّالة .. رجل لا يهاب الموت ولا يخشى المستحيل .. رجل يمتلك الخبرات والمهارات اللازمة ، ولكنه لا ينتمى للمخابرات المغربية ، بحيث لا يؤدّى كشف أمره إلى متاعب سياسية .

حسم مدير المخابرات المصرية الأمر ، وهو يقول فى حزم :

ـ باختصار إنهم يحتاجون إلى (رجل المستحيل) .

٢ ـ فى قلب الصحراء ..

رفع (أدهم صبرى) المنظار المقرِّب عن عينيه ، وجفَّف عرقه ، ثم التفت إلى زميلته (منى توفيق) ، وقال :

ـ لقد اقتربنا من قلعة الصحراء يا عزيزتى .

زفرت (منى) فى ضيق ، وقالت وهى تحكم وضع غطاء الرأس الذى ترتديه ، فى محاولة لدرء أشعة الشمس المحرقة :

ـ هل تتوقع منّى أن أسعد بذلك ياسيادة العقيد ؟ إننا نهرب من صحراء المغرب المحرقة إلى قلعة ربما ينتظرنا الموت داخل أقبيتها .

جلس (أدهم) على مقعد السيارة الجيب التى تقله وزميلته ، وعاد يجفِّف عرقه قائلًا فى سخرية :

ـ ياله من عمل !! يرسلوننا إلى الاتحاد السوفييتى فى قلب الشتاء ، وإلى الصحراء المغربية فى منتصف الصيف .

تنهّدت (منى) ، على حين أدار (أدهم) محرّكات السيّارة الجيب ، وهو يسمعها تسأله :

ـ ولِمَ اختار (حافظ بن باهى) بناء قلعته فى هذه النقطة المنعزلة من صحراء المغرب ؟

انطلق (أدهم) بالسيارة ، وهو يجيبها قائلًا :

ـ لقد قضى (حافظ بن باهى) ثلاث سنوات تقريبًا ، يدرّب رجال المخابرات المغربية على أعمال المتفجّرات ، بصفته خبيرًا سابقًا فى هذا المجال .. وكان التدريب يتم فى

هذه القلعة المنعزلة ، ثم لم يلبث أن اعتزل وطلب شراء المكان ، فمنحته السلطات ذلك مكافأة له على الخدمات التى قدَّمها من قبل .

هزّت (منى) رأسها ، وسألته فى حيرة :

ـ وكيف يتجه مثل هذا الرجل إلى الاتجار بالمخدرات والسُّموم ؟

مطَّ (أدهم) شفتيه فى اشمئزاز ، وقال :

ـ إنها شهوة المال والثراء ياعزيزتى .. تلك الغشاوة التى يضعها الشيطان على أعين الطامعين ، ثم لا ينزعها إلا حينما يوردون أنفسهم مورد التهلكة .

ساد الصمت طويلًا بعد هذه العبارة ، إلى أن قال (أدهم) فى اهتمام :

ـ استعدِّى لتمثيل دورك يا عزيزتى ، فما أن ندور حول التّبة الرملية المواجهة لنا ، حتى نصبح فى منتهى الوضوح أمام أعين رقباء (حافظ بن باهى) .

ولمَّا لم يتلقَّ جوابًا ، استدار إلى (منى) ، فوجدها قد

أغلقت عينيها ، واسترخت فى مقعدها تمامًا ، فسألها فى سخرية :

ـــ فِيمَ تفكّرين أيتها النقيب ؟

أجابته فى هدوء ، ودون أن تبتسم أو تفتح عينيها :

ـــ فى ثلوج القطب الجنوبى .. لعل الفكرة تخفّف من وطأة الحرارة .

* * *

وقف (حافظ بن باهى) أمام مرآة غرفته ، يعقد رباط عنقه فى اهتمام وعناية ، وكان قد ارتدى حُلّة بيضاء ناصعة ، بدت متناسقة برغم بدانته الواضحة ، وقميصًا أزرق اللون من الحرير التايلاندى الثمين ، ووقف بعد ذلك يتأمّل ملامحه فى إعجاب .. كان وجهه ممتلئًا يميل إلى السمرة كشأن الشرقيين ، وله عينان ضيقتان ، تبدو منهما فى صعوبة حدقتان عسليتا اللون أسفل حاجبين سوداوين كثيفين .. وله أنف مستقيم فوق شارب كثّ ، اختلط سواده بشيبه ، وفوق رأسه شعر كثيف ، تزينه خصلة بيضاء

ناصعة من منتصف جبهته ، وسالفان وخطّهما الشيب ، ممّا أعطاه مظهرًا وسيمًا أنيقًا ، وكان يبدو معجبًا بهيئته حينما دخل إلى غرفته رجل مفتول العضلات ، تشفّ ملامحه عن القوة والبأس ، يقول فى اهتمام :

ـــ يبدو أن لدينا زائرين يا زعيمى .

توقّف (حافظ) بغتة عن هندمة حُلّته ، والتفت إلى الرجل متسائلًا فى دهشة :

ـــ زائرين ؟!.. ماذا تعنى يا (خالد) ؟

قال (خالد) ، وهو يعقد ساعديه المفتولين أمام صدره :

ـــ مصريّان .. رجل وزوجته ، يبدو عليهما الإرهاق الشديد ، والزوجة فاقدة الوعى تقريبًا ، وأعتقد أنها مصابة بضربة شمس لشدة الحرارة .

التقى حاجبا (حافظ) فى تفكير ، وهو يسأل (خالد) فى بطء :

ـــ وكيف وصلا إلى هنا ؟

أجابه (خالد) :

ــ يقول الرجل إنهما ضلَّا طريقهما ، فى أثناء محاولته تصوير بعض قبائل (الطوارق) التى تنتشر فى المنطقة .. ولقد وصلا إلى هنا فى سيارة من نوع الجيب .

سأله (حافظ) فى اهتمام :

ــ هل فتشت السيارة ؟

أومأ (خالد) برأسه موافقًا ، وقال :

ــ نعم .. ولقد وجدت معدَّات التصوير ، وزمزمية فارغة من الماء تقريبًا .

صمت (حافظ بن باهى) طويلًا ، وبدأ التفكير العميق فى كل خلجات وجهه ، قبل أن يقول :

ــ هناك شىء ما يثير ريبتى فى هذا الأمر يا (خالد) ، وأعتقد أنه من الأفضل أن أقابل زائرينا بنفسى .

* * *

أسبلت (منى) عينيها متظاهرة بالدُّوَار ، برغم الدهشة العارمة التى احتوت كل خليَّة من خلاياها ، بمجرد

عبورها و (أدهم) مدخل قلعة (حافظ بن باهى) ، إلى البهو فائق الأناقة والثراء فى مدخلها .. كان الانتقال من الصحراء القاحلة إلى القلعة ، يشبه الانتقال من الجحيم إلى الجنة فى قفزة واحدة ، فلقد حوَّلتها أجهزة التكييف إلى مناخ ربيعى جميل ، وانتشرت فى جوانب البهو الرخامية البيضاء أحواض الزهور والنباتات الخضراء الناضرة ، وتوسَّطت البَهو نافورة أنيقة من المرمر الأبيض ، تسكب رذاذ الماء فى حوض من الرخام الناصع .. كانت كل لمحة فى القصر توحى بالثراء الفاحش ، والذوق السليم ، حتى أن (منى) لم تستطع كتمان تنهيدة انطلقت من صدرها ، ولم تلبث أن فتحت عينيها فى بطء وهى تغمغم :

ــ أين أنا ؟.. ماذا حدث يا (أسامة) ؟

مال (أدهم) نحوها متظاهرًا بالجزع ، وهو يقول :

ــ لقد نجونا يا عزيزتى .. اطمئنى .

وفى تلك اللحظة وصل (حافظ) بحُلَّته البيضاء الأنيقة ، يتبعه (خالد) بعضلاته المفتولة ، ونهض (أدهم) متظاهرًا بالارتباك ، وهو يصافحه قائلًا :

ـ معذرة يا سيِّدى .. لقد ضللنا الطريق و ....

قاطعه (حافظ) وهو يتفرَّس فى ملامحه فى اهتمام ، قائلًا :

ـ مرحبًا بكما على أية حال .. أنا (حافظ بن باهى) ، صاحب شركات (باهى) للميكنة الزراعية .

أشار (أدهم) إلى (منى) ، التى نهضت فى شكل يوحى بالضعف ، وقال :

ـ أنا (أسامة صفوت) مصوِّر سينمائىّ مصرىّ ، وزوجتى (مها تمَّام) صحفية مصريَّة .

تأمَّل (حافظ) ملامحهما فى هدوء ، وقال :

ـ من العجيب أن تسمح لك السلطات المغربية بالتجوال وحدك فى هذه الصحراء يا سيِّد (أسامة) ، فهذا خطر للغاية .

تظاهر (أدهم) بالأسف ، وهو يقول :

ـ إنه خطئى يا سيِّد (حافظ) .. لقد رفضت انتظار الدليل ، وظننت أنه بإمكانى اجتياز صحرائكم وحدى .

قال (حافظ) فى هدوء :

ـ خطأ يا سيِّد (أسامة) .. الوطنيون يطلقون على هذه الصحراء اسم (صحراء الموت) .

تظاهر (أدهم) بالخوف ، وهو يقول :

ـ هذا صحيح يا سيِّد (حافظ) .. لقد ذقت أنا وزوجتى ذلك منذ قليل .

التفت (حافظ) إلى (منى) ، وسألها فى لهجة مهذَّبة :

ـ هل زالت أوجاعك يا سيِّدتى ؟

أجابته (منى) مبتسمة :

ـ لقد تغلَّبت دهشتى على آلامى يا سيِّد (حافظ) ، فلم أكن أتصوَّر مطلقًا وجود قصر رائع كهذا وسط صحراء المغرب .. إنه يشبه قصور (ألف ليلة وليلة) .

ابتسم (حافظ) قائلًا :

ـ ليس إلى هذا الحدّ يا سيِّدتى .

ثم التفت إلى أحد رجاله ، وقال فى هدوء :

ـ اصحب زائرينا إلى جناح الضيوف يا (بن هاشم) .. سيقضيان الليلة معنا حتى يستردَّا حيويَّتهما .

لم يكد (بن هاشم) يصحب (أدهم) و (منى) إلى جناح الضيوف ، حتى مال (خالد) على زعيمه ، وسأله فى دهشة :

ــ لِمَ سمحت لهما بالبقاء يا سيِّدى ؟.. ستصل الشحنة الجديدة فى منتصف الليل .

ابتسم (حافظ) فى مكرٍ ، وقال :

ــ أريد التأكد من اللُّعبة التى يلعبها هذا الرجل وزوجته المزعومة يا (خالد) .. لقد نسى رجال المخابرات المغربية أننى كنت المدرِّب الأوَّل لهم ، وقت أن خانهم (أيمن بن على)(*) ، وأننى أعرف ضابط المخابرات المصرى هذا جيِّدًا .. إن ذلك المصوِّر المزعوم يُدْعَى (أدهم صبرى) يا (خالد) ، وهم يطلقون عليه فى بلاده لقب (رجل المستحيل) ، والليلة سنضيف إلى لقبه كلمة (سابقًا) .

★ ★ ★

(*) راجع قصة (عملية مونت كارلو) .. المغامرة رقم (١٤) .

٣ ــ هجوم الخائن ..

ضاقت عينا (أدهم)، وهو ينظر إلى صحراء المغرب المترامية الأطراف ، من خلف زجاج نافذة جناح الضيوف ، ثم قال محدِّثًا (منى) فى صوت خافت :

ــ هؤلاء الرجال يثيرون الرِّيبة يا عزيزتى .. إنهم يفحصون الجيب بدقة بالغة .. لا ريب أن (حافظ بن باهى) رجل كثير الشكوك .

تناولت (منى) تفاحة طازجة من طبق الفاكهة الكبير الذى أحضره (بن هاشم) ، وقضمت منها قضمة صغيرة ، ثم ألقت تفاحة أخرى إلى (أدهم) ، وهى تقول :

ــ لو أننا فى مكانه لفعلنا الشىء نفسه يا (أدهم) .

وضع (أدهم) سبَّابته على فمه محذِّرًا ، وهو يقول :

ــ (أسامة) يا عزيزتى .. لا تنسَىْ ذلك .

وفجأة .. رفعت (منى) يدها إلى جبهتها .. وسقط جفناها .. وهى تقول ..

ابتسمت (منى) ، وهى تلتهم تفاحتها فى تلذُّذ قائلة :

ــ لن أنسى شيئًا بعد الآن يا (أُسامة) بك .

ثم اقتربت منه قائلة :

ــ ماذا تنوى أن تفعل ، بعد أن استضافنا (حافظ) ؟

صمت (أدهم) لحظة ، ثم قال :

ــ نظام الأمن هنا يبدو معقَّدًا للغاية ، برغم بساطته يا عزيزتى ، والرجل شديد الشك ، حتى أنه لن يسمح لنا بالتجوال فى قلعته مطلقًا .

وفجأة .. رفعت (منى) يدها إلى جبهتها ، وسقط جفناها ، وهى تقول فى ضعف يمتزج بالدهشة :

ــ يا إلهى !! إن رأسى يدور بشدة .. لقد تناولنا مخدِّرًا ما .. ولكننا لم نشرب شيئًا .. لم ....

وبترت عبارتها فجأة ، وهى تهوى غائبة عن الوعى بين ذراعى (أدهم) ، الذى أرقدها فوق الفراش ، وهو يقول فى حنق :

ــ يا للأوغاد !!

ثم اتسعت عيناه دهشة ، وهو يغمغم :

ــ ربَّاه !! التفاح .. لقد حقنوه بالمخدِّر .. لقد ....

وهوى قبل أن يتم عبارته فوق الفراش ، وسقطت ذراعه متراخية إلى جواره ..

* * *

ارتسمت ابتسامة شامتة على شفتي (حافظ) ، وهو يتأمَّل (أدهم) و (منى) فاقدى الوعى ، وأشار إلى سترة (أدهم) الملقاة فى إهمال فوق مقعد قريب ، وقال محدِّثًا (خالد) :

ــ فتِّش هذه السُّترة جيِّدًا يا (خالد) ، وستجد أن قصة هذا المدَّعى كاذبة من جذورها .

أخرج (خالد) محتويات السُّترة ، وأخذ يفحصها فى اهتمام ، على حين داعب (حافظ) سلَّة الفاكهة بأصابعه ، وهو يقول ساخرًا :

ــ هذه المادَّة المخدِّرة أثبتت نجاحها مرة أخرى يا (خالد) .. لقد أفقدتهما وعيهما فورًا .

وبدلًا من أن يشاركه (خالد) سخريته ، غمغم فى دهشة :

ــ عجبًا .. ماذا يعنى هذا ؟

سأله (حافظ) فى حِدَّة :

ــ ما الذى يثير دهشتك إلى هذا الحدّ ؟

قال (خالد) ، وهو يناوله بعض الأوراق .

ــ لقد حضر هذا الرجل إلى (المغرب) بجواز سفر مصرى يحمل اسم (أُسامة صفوت) ، مصوِّر سينمائى ، ويحمل تصريحًا بالتصوير فى الصحراء المغربية ، ولقد استغرق استخراج التصريح أسبوعًا كاملًا ، كما يبدو واضحًا من الفارق بين تاريخ التوقيع الأول والتوقيع الأخير ، ولديه تصريح مؤقت بالقيادة .. كل هذا ينفى انتماءه لأجهزة المخابرات .

فحص (حافظ) الأوراق فى عناية واهتمام ، ثم قال بعصبيَّة واضحة :

ــ ليس هناك ما هو أسهل من تزوير بعض الأوراق الحكومية بالنسبة لجهاز مخابرات يا (خالد)، وهذا لا ينفى أن هذا الرجل هو نفسه (أدهم صبرى) .

ثم طوّح الأوراق فى عصبية ، وهو يردف غاضبًا :

ــ ولا بدَّ من قتله قبل منتصف الليل .

نهض (خالد) فى هدوء ، وأخذ يجمع الأوراق وهو يقول :

ــ كما تشاء أيها الزعيم .

أشعل (حافظ) سيجارته فى توتّر ، وهو يقول :

ــ هذا الرجل هو (أدهم صبرى) ، ويمكننى أن أقسم على ذلك .. ولا بدَّ من التخلّص منه ، وإلَّا أفسد العملية برمَّتها .

أخذ (خالد) يعيد ترتيب الأوراق ، وهو يقول :

ــ ما دمت تؤكد ذلك ، فهو صحيح أيها الزعيم .

وفجأة .. انطلقت من حنجرته صيحة دهشة قصيرة ، زادت من توتُّر (حافظ) الذى قال فى حنق :

ــ ماذا حدث هذه المرة أيضًا ؟

التقط (خالد) شيئًا ، وهو يقول فى لهجة تشفّ عن الدهشة :

ــ إنها واحدة من التفاحتين اللتين التهمهما ضابط المخابرات المصرى وزميلته .

سأله (حافظ) فى توتُّر زائد :

ــ وماذا فى ذلك ؟

رفع (خالد) التفاحة أمام وجه زعيمه ، وهو يقول :

ــ إنها سليمة لم تنقص قطعة واحدة .

اتسعت عينا (حافظ) ، وهو يقول فى دهشة :

ــ ربَّاه !! كيف فقد الرجل وعيه إذن ؟.. هناك خدعة ما .

تسمَّرت أطرافهما فجأة ، وشحب وجهاهما حينما أتاهما صوت ساخر قوىّ النبرات ، يقول فى هدوء بعث الرجفة فى أوصالهما :

ــ جميل منكما أن كشفتما ذلك .

* * *

٤ ــ المواجهة ..

انتفض جسد (خالد) فى ذعر ، وتجمّدت نظرة دهشة بلهاء فى عينى (حافظ) ، حينما التفتا فوجدا (أدهم) يقف هادئًا إلى جوار الفراش ، وقد عقد ساعديه المفتولتين أمام صدره القوىّ ، وارتسمت فى عينيه وفوق شفتيه ابتسامة ساخرة هادئة ، تشفّ عن أن صاحبها رجل لا يهاب الخطر ، ولا يأبه بالمتاعب .

غمغم (حافظ) فى ذهول يمتزج بالغضب :

ــ لقد خدعتنا .

هزَّ (أدهم) كتفيه فى استهتار ، وقال :

ــ وماذا فى ذلك ؟.. أليست الحرب خدعة ؟.. ونحن ــ كما يبدو واضحًا ــ نلعب بأوراق مكشوفة .

اختفت نظرات الدهشة من وجه (حافظ) ، وحلّ محلها غضب عارم ، وهو يقول فى بطء :

ــ لن تخرج من قلعتى حيًّا .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة بدّدت غضب (حافظ) ، وقال بعدها :

ــ كثيرًا ما سمعت هذا القول من أوغاد مثلك أيها الرجل ، ولكن من المؤسف أن أحدهم لم ينجح فى تنفيذ وعيده مطلقًا .

وفجأة .. وبمبادرة سريعة جريئة ، أخرج (حافظ) من جيب سترته مسدسًا قويًّا ، صوّبه نحو (أدهم) وهو يصرخ فى غضب هادر :

ــ حينما تمثل دور البطل ، لا تقف هكذا أعزل من السلاح أيها الرجل .

ثم أطلق رصاص مسدسه نحو (أدهم صبرى) .

* * *

انطلقت رصاصتان تحملان الموت فى انطلاقتهما نحو (أدهم) .. وأجاد (حافظ) التصويب بما يتناسب مع خبير سابق فى المتفجرات والأسلحة الناريّة ، وكادت

الرصاصتان تصيبان هدفهما ، لولا أنه لم يكن هناك .. كان هذا هو الخلل الوحيد الذى حدث فى الأمر ، فقد قفز (أدهم صبرى) إلى اليمين ، متفاديًا الرصاصتين فى سرعة ، بدت فى أعين (حافظ) و (خالد) مذهلة ، ثم قفز إلى أعلى متجاوزًا المترين ارتفاعاً ، وهبط على بعد خطوتين فقط إلى يسار (حافظ) ، الذى أصابته الدهشة ، وسيطر عليه الارتباك جزءًا من الثانية ، انطلقت قبضة (أدهم) بعدها تطيح بمسدسه ، ثم تحرّكت قبضته الأخرى لتغوص فى معدة (حافظ) فى قوة ، جحظت لها عينا الرجل ، وانفرجت لها شفتاه فى صرخة ألم ودهشة ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها (خالد) نحو (أدهم) ، فى محاولة للدفاع عن زعيمه ، وهو يطلق صرخة قتالية ارتج لها المكان ، ولكن (أدهم) تحرّك فى سرعة ليستقبل (خالد) بلكمة هبطت على فكّ هذا الأخير كالقنبلة ، ولكن (خالد) اعتدل مستعيدًا توازنه فى سرعة ولياقة ، ووجّه لكمة خاطفة إلى صدر (أدهم) ، وشعر بها (أدهم) ترتطم بضلوعه فى قوة ، وعرف فى هذه اللحظة أن

خصمه ليس ممن يستهَان بهم ، وأن الأمر يحتاج إلى كل مهارته وخبراته القتالية ، فغاص بجسده إلى أسفل ، متفاديًا لكمة ساحقة وجّهها إليه (خالد) بيسراه ، ثم انتصب فى رشاقة ، منهالًا على فكّ (خالد) بلكمة فولاذية ، أفقدته توازنه ، ثم ألحقها بأخرى فى معدته ، وثالثة بين عينيه .. وأخيرًا سقط (خالد) ، وقد عجز جسده القوىّ عن احتمال هجوم (أدهم) الخاطف ..

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال وهو يتأمّل خصمه الذى فقد الوعى :

— معذرة يا صديقى .. لقد اضطررتنى إلى تشويه ملامحك الوسيمة .

وفجأة .. سمع صوت (حافظ) يأتى من خلفه ، قائلًا فى حنق وشماتة :

— هذا بالضبط ما سأفعله أنا أيها الشيطان .

انحرف (أدهم) جانبًا ، واستدار نحو (حافظ) فى سرعة ولياقة ، ولكنّه جمُدَ فى مكانه ، حينما رأى مسدس

(حافظ) ملتصقًا بجبهة (منى) الفاقدة الوعى وسمعه يردف فى وحشية :

ــ إذا ما بدرت منك حركة واحدة ، فسأزيِّن جبهة زميلتك بثقب أحمر محترق ، حتى لو اضطرنى الأمر إلى تشويه الفراش بدمائها .

عقد (أدهم) ساعديه فى هدوء ، وقال فى مرارة :

ــ لماذا لا تطلق النار على رأسى مباشرة أيها الوغد ؟

ابتسم (حافظ) ابتسامة نصر وحشية شامتة ، وهو يقول :

ــ كلَّا يا رجل المخابرات المصرى .. إننى أُعدُّ لك ميتةً مناسبة ، تليق بخبير مثلى .

ضحك (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ هل ستنسفنى نسفًا ؟

حرَّك (حافظ) رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال :

ــ كلَّا أيها الشيطان .. ولكننى أعدك أن تتمنَّى ذلك قبل أن تَلقَى حتفك ..

على بعد آلاف الأميال من صحراء (المغرب) .. وداخل مبنى صغير فى عاصمة دولة غير عربية بالشرق الأوسط ، وقفت فتاة رائعة الحُسن والجمال ، تنفث دخان سيجارتها فى عصبية ، وتقول فى شراسة لا تتفق والرِّقة البادية فى ملامحها :

ــ مستحيل يا سيِّدى المدير .. لقد مات (أدهم صبرى) .. لقد رأيته بنفسى يَلْقَى حتفه وسط الثلوج فى (سويسرا)(*) .

تطلَّع إليها الرجل الضئيل الأصلع ، ذو الأنف المقوَّس الذى يجلس فوق مكتب قديم ، وقال فى هدوء :

ــ إنها ليست المرة الأولى التى يصلنا فيها ما يفيد بقاءه على قيد الحياة يا (سونيا) .. هل تذكرين عملية (الهند) ، وإنقاذ الباخرة المصريَّة المخطوفة ، ومحاولة البروفيسير (آدم) ؟

(*) راجع قصة (الخنجر الفضى) .. المغامرة رقم ٢٥ .

لم تكن الفتاة رائعة الحسن سوى (سونيا جراهام) ، أخطر أفراد جهاز المخابرات المسمَّى (بالموساد) ، ولقد أجابت فى عناد :

ـــ مهما بلغت قدرات (أدهم صبرى) هذا ، فهو مجرَّد بشر لا يمكنه احتمال البقاء تحت أطنان الثلوج يا سيِّدى .

ثم صمتت لحظة نفشت خلالها دخان سيجارتها ، وقالت :

ـــ سأسافر بعد إذنك يا سيِّدى إلى المغرب ، للتحقُّق من صحة الرسالة التى أرسلها عميلنا هناك .

مطَّ مدير (الموساد) شفتيه ، وقال فى هدوء :

ـــ لا بأس يا (سونيا) ، فلابد لنا من حسم هذا الأمر إلى الأبد .

أومأت (سونيا) برأسها موافقة ، وهى تقول :

ـــ اطمئن يا سيِّدى ، فلو لم يكن (أدهم صبرى) قد انتقل إلى جوار ربِّه ، فسأعمل جاهدة على إرساله فى هذه الرحلة بأقصر طريق ممكن .

* * *

٥ ـــ ساعات العذاب ..

نظر (حافظ بن باهى) فى ساعته ، ثم رفع عينيه قليلًا إلى السماء ، وجفَّف العرق الغزير الذى انهمر على وجهه ، وقال فى شماتة :

ـــ مازال أمامنا ست ساعات قبل غروب الشمس ياسيِّد (أدهم) .. تُرَى كم من الوقت يمكنك احتمال هذا الجحيم ؟

ابتسم (أدهم) ابتسامة ساخرة ، برغم الرمال الملتهبة التى تشوى ظهره وهو راقد فوقها ، وأطرافه الأربعة مشدودة إلى أوتاد خشبية قويَّة بحبال من البلاستيك المتين ، عارى الصدر والقدمين ، إلَّا من سرواله ، والعرق يتصبَّب من جسده ملتهبًا محرقًا .. ولكنه برغم ذلك قال فى هدوء ساخر :

ـــ شكرًا أيُّها الوغد .. كم تمنَّيت الحصول على حمَّام

شكرًا أيها الوغد .. كم تمنيت الحصول على حمام الشمس المنعش هذا ...

الشمس المنعش هذا ، لولا أن أعمالى لم تكن تسمح بهذا التَّرف .

قال (حافظ) فى شماتة :

ـ سيسعدنى أن أرى جسدك ، بعد أن تشوِّهه أشعة شمس أغسطس يا سيِّد (أدهم) .. لن يمكنك تصوُّر مدى العذاب الذى ستلاقيه قبل المغيب .

ضحك (أدهم) ضحكة ساخرة ، وقال فى تهكُّم :

ـ إن ما يعذِّبنى هو رؤية وجهك القبيح أيها الوغد .

تجهَّم وجه (حافظ) لحظة ، ثم التفت إلى (بن هاشم) ، الذى يقف إلى جواره ممسكًا مدفعه الرشاش ، وقال :

ـ راقب هذا الرجل جيِّدًا حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وحذار أن يخدعك بوسائله الحاذقة .. أريده أن يظل كذلك ، حتى تحرق الشمس والرمال كل خليَّة من خلاياه .

ثم استدار منصرفًا ، وهو يقول فى تهكُّم يحمل شراسة عنيفة :

— ولْنَرَ كيف ستتمتع بحمَّام الشمس القاتل هذا يا سيِّد (أدهم) .. سابقًا .

* * *

مضت ساعة كاملة منذ انصراف (حافظ) ، والتهب جسد (أدهم) من شدة الحرارة ، وسخونة رمال الصحراء .. كان يشبه رجلًا وضع حيًا فوق مقلاة ساخنة ، بالإضافة إلى العرق الذى عَمَّ جسده ، وانسال فى عينيه يحرقهما حرقًا .. وطوال هذه الساعة لم يتوقَّف عقل (أدهم) لحظة واحدة عن التفكير .. كان يعترف بأن هذا هو أصعب موقف مرَّ به فى حياته بأكملها .. فهو مقيَّد فوق الأرض وسط صحراء قاحلة ، لا مكان فيها للتخفِّى والاختباء ، وأمامه رجل يجلس تحت مظلَّة تقيه وهج الشمس، ويصوِّب إليه مدفعه الرشَّاش، استعدادًا لإطلاق النار لمجرد الشك فى قيام (أدهم) بأية محاولة للهرب ، برغم القيود التى تثبِّته أرضًا .

حاول (أدهم) طويلًا أن يتوصَّل إلى حلٍّ ينقذه من

هذا العذاب ، فاستجمع قوته ، وجذب قيوده بأقصى ما يمتلك من قوَّة ، وكشف حينئذ قدرته على انتزاع الأوتاد من الرمال ، ولكن كيف يفعل هذا ، وذلك الرجل (بن هاشم) يراقبه فى اهتمام وشماتة .. عليه إذن أن يفكر فى وسيلة لإبعاد حارسه ولو دقائق معدودة ، ولكن كيف ؟..

مضت نصف ساعة أخرى ، التهمت فيها حرارة الشمس جزءًا آخر من جسد (أدهم) ، وتململ (بن هاشم) وهو يمسح عرقه الغزير برغم جلوسه فى الظل ، فقال (أدهم) متظاهرًا بأنه يحدِّث نفسه فى صوت مرتفع :

— يا إلٰهى !! كم أتوق لكوب من الماء المثلج ؟

ازداد تململ (بن هاشم) ، وبدأ يلعق شفتيه بطرف لسانه ، وقد ازداد شعوره بالحاجة إلى ذلك الشراب ، الذى نسى إحضاره معه حينما تولَّى مهمة مراقبة (أدهم) ، وكان (أدهم) قد تنبَّه إلى ذلك بالفعل ، فعاد يكرِّر متظاهرًا بالألم :

— كم سيكون من الممتع الحصول على بعض المرطّبات ، أو زجاجة من المياه الغازية المثلجة .. إن حلقى جاف للغاية .

بدأ (بن هاشم) يسبُّ ساخطًا ، وهو يحوّل بصره بين (أدهم) الممدّد فوق الرمال ، والقلعة التى ترتفع شامخة على بعد مائتى متر تقريبًا ، على حين استمرَّ (أدهم) يقول فى صوت مرتفع :

— إن جوفى يحترق .. كم يلذّ لى ترطيبه بكأس من العصير المنعش .

نهض (بن هاشم) فجأة ، وهو يقول :

— اللعنة .. إن النسور لن تلتهم هذا الرجل ، فى الوقت الذى يستغرقه إحضار بعض الزجاجات المرطبة .

ثم تحرّك فى خطوات سريعة واسعة نحو القلعة ، دون أن يلتفت خلفه .. ولو أنه فعل ، لكان سيجد أن (أدهم صبرى) قد استجمع قواه الفولاذية ، وانتزع الوتد الذى يثبت ذراعه اليمنى فى الرمال المحرقة .

* * *

عاد (بن هاشم) منتعشًا بعد عشر دقائق بالتحديد ، وهو يحمل صندوقًا امتلأ بالزجاجات الغازية المنعشة ، وضعه إلى جوار المقعد أسفل المظلّة الواقية ، ثم عاد يمسك مدفعه الرشّاش قائلًا :

— الآن يمكننى مراقبة الرجل حتى صباح الغد .

ثم نظر إلى (أدهم) فى سخرية ، قائلًا :

— سوف أدفن إلى جوار جثتك المحترقة ، زجاجاتى الفارغة أيها المصرى .

وفجأة .. تدلّت فكّه السفلى فى بلاهة ، وانبعثت برودة عجيبة فى أطرافه ، وانقبضت عضلات معدته ، حتى كاد يتقيّأ المياه الغازية التى جرعها منذ قليل .. فقد انتصب (أدهم) فجأة واقفًا أمامه كشيطان عملاق ، خرج من جوف الأرض ، وبدت عضلاته المفتولة ،المحمَّرة من أثر الشمس تلمع بكل ما عليها من عرق ، وانطلقت من عينيه نظرة ساخرةمخيفة ، حتى أن (بن هاشم) ارتجف فى رعب ، وهو يرفع فوّهة مدفعه الرشاش المرتعد نحو (أدهم) ، صارخًا :

ـــ مستحيل .. لقد أحكمت قيودك بنفسى .

تحركت قدم (أدهم) فى سرعة ، لتطيح بالمدفع الرشاش بعيدًا ، ثم انقضت قبضتاه على فك (بن هاشم) وأنفه ، فاندفعت منهما الدماء ، وسقط الرجل أرضًا فاقد الوعى ، دون أن يزيد حرفًا واحدًا .

التقط (أدهم) المدفع الرشاش فى خفة ، وانطلق يعدو فى سرعة مبادرة مذهلة نحو السيارة الجيب ، التى تركها رجال (حافظ) فى إهمال أسفل بضع نخلات ، انتشرت على جانب القلعة دون حراسة ..

صوّب أحد الرجال مدفعه الرشاش نحو (أدهم) من فوق القلعة ، وأخذ يطلق النيران فى جنون ، وهو يصرخ :

ـــ لقد هرب الرجل .. لقد تغلّب على (بن هاشم) ، ونجح فى الهروب .

ولكن (أدهم) قفز فى السيارة ، وأدار محركاتها ، وانطلق بها فى سرعة البرق ، غير مبالٍ بالرصاصات التى انهمرت كالمطر ، وهو يقول فى سخرية وحزم :

ـــ ها قد سمحت لنفسى بالحصول على جولة أخرى أيها الأوغاد .. وإننى أُصِرُّ على جعلها آخر جولات القتال .

* * *

٦ ـ وحش الصحراء ..

هوت صفعة (حافظ) على وجه (بن هاشم) كالقنبلة ، ارتجَّ لها مخّ الرجل الذى صرخ فى حنق وألم :

ـ لقد انتزع الأوتاد من الأرض انتزاعًا أيُّها الزعيم .. ماذا كنت سأفعل حينذاك ؟

صاح (حافظ) فى غضب :

ـ لقد فعل ذلك لأنك تركته دون مراقبة ، لتحضر بعض المشروبات أيها الغبىّ .

ثم استدار إلى رجل آخر ، وصرخ فيه :

ـ ثم لماذا لم تتبعوه بسياراتنا يا (أبو رقيـان)؟.. لماذا تركتموه يهرب ؟

قال (أبو رقيان) مدافعًا عن نفسه :

ـ لقـد باغتنـا أيها الـزعيم .. انطلق بالجيب مثيرًا عاصفة من الرمال ، ثم لم يلبث أن اختفى خلف تل قريب ، قبل أن نأخذ أهْبتنا .

صرخ (حافظ) :

ـ أغبياء .. كلكم أغبياء .

ربَّت (خالد) على كتف زعيمه ، وقال فى هدوء :

ـ المهم الآن ماذا سنفعل يا زعيمى ؟

صمت (حافظ) لحظة ، ثم أخرج سيجارة بأصابعه المرتجفة ، دسَّها بين شفتيه وطال تردُّده ، قبل أن يقول :

ـ سيسير كل شىء كما خطَّطنا له من قبل يا (خالد) .. ستصل الشحنة فى موعدها تمامًا .. كل ما هناك هو أننا سنضاعف الحراسة هذه المرَّة ، وسأصدر أوامرى بإطلاق النار على كل ما يتحرَّك فى المنطقة .

سأله (خالد) :

ـ وماذا عن فتاة المخابرات المصرية ؟

صمت (حافظ) لحظة ، ثم افترَّ ثغره عن ابتسامة شرسة ، وهو يقول :

ـ إنها ورقة رابحة فى أيدينا يا (خالد) ، سنصنع منها فخًا للإيقاع بضابط المخابرات المصرى .. إنها ورقة رابحة بالفعل .

* * *

رفع (أدهم صبرى) رأسه يتأمَّل قرص الشمس الذى قارب المغيب ، ثم وضع منظاره المقرّب فوق عينيه ، وانبطح على صدره أرضًا يتأمَّل القلعة التى بدت مخيفة مع الظلال التى صنعها الغروب .. ولم يلبث أن أعاد منظاره المقرِّب إلى جواره وتنهَّد فى ألمٍ وحنق ...

كان يشعر بضيق بالغ ؛ لأنه ترك (منى) بين يدى هؤلاء الأوغاد ، وكان حنقه يزيد من آلام جسده المتسلِّخ ، ولكنَّ إيمانه التام بعدالة ونبل القضية التى يعمل من أجلها ، خفَّف عنه الكثير من وطأة الموقف ، وبعث فى نفسه عزيمة وإصرارًا لا حدود لهما ، وفى الوقت نفسه كان يعلم أنه من المستحيل الوصول إلى القلعة أو اقتحامها قبل حلول الظلام ؛ ولذا لم يكن أمامه إلَّا الانتظار .. والصبر .

أخذ (أدهم) يفحص السلاح الوحيد الذى يملكه فى عناية بالغة .. كان عبارة عن المدفع الرشَّاش الذى التقطه إبَّان هروبه ، وكان يعمل بصورة جيِّدة ، ولكن ذخيرته لم تتعدَّ خزانة رصاص واحدة ، وهذا يعنى أن كل رصاصة لها قيمتها ..

وفجأة .. لمح (أدهم) مع أضواء الغروب الأخيرة سيارة أخرى من نوع الجيب ، تقترب بسرعة من قلعة (حافظ بن باهى) ، فقطَّب حاجبيه وهو يغمغم :

ــ من هذا الزائر الجديد يا تُرَى ؟

ثم رفع منظاره المقرِّب إلى عينيه ، وأخذ يراقب الجيب وهى تتوقَّف أمام القلعة ، ويهبط منها شخص ما ، لم يستطع تبيُّنه فى وضوح ، حتى تحرَّك نحو الحارسين اللذين يقفان أمام مدخل القلعة ، فاتضحت ملامح الشخص ، وعرف فيه (أدهم) على الفور وجهًا مألوفًا لفتاة باهرة الحسن ، رائعة الجمال ، رقيقة الملامح ، شرسة الطباع ، ساديَّة الرغبات ، لم يكد يتبيَّنها حتى شملته دهشة عجيبة ، لم تلبث أن تبدَّدت ، وحلَّت محلها روح القتال والسخرية ، وهو يتمتم فى صوت غاية فى الخفوت :

ــ يا إلهى !! أنها صديقتنا القديمة (سونيا جراهام) ..

والله إن الأمور لتتطوَّر إلى مزيد من الإثارة فى كل لحظة .. كم أتوق إلى منح صديقتنا (سونيا) هزيمة جديدةً هذه المرة أيضًا .

* * *

اتسعت عيون (حافظ بن باهى) ورجاله عن آخرها ، على مرأى (سونيا جراهام) بجمالها المذهل الفتان ، وهى تخطو فى دلال وكبرياء داخل بهو القلعة ، وتمدُّ يدها الرقيقة إلى (حافظ) ، قائلة فى ابتسامة تذوب رقَّة وعذوبة :

ـــ السيِّد (حافظ بن باهى) حسبما أعتقد .. أليس كذلك ؟

ظل (حافظ) يحدِّق فى وجهها بضع لحظات فى صمت وافتتان ، ثم لم يلبث أن أفاق من نشوته ، فانحنى على يدها يقبِّلها قائلًا :

ـــ بلَى ، يا أجمل الجميلات ، ولكن .. من أتشرَّف ويُسعِدُنى الحظ بتقبيل أناملها الرقيقة ؟

ابتسمت (سونيا) ابتسامة أشد إغراءً ، وهى تقول :

ـــ (سارة جمال الدين) .. هذا اسمى .. ولقد أتيت خصيصًا لمقابلتك يا سيِّد (حافظ) .

نظر إليها (حافظ) فى دهشة ، وهو يسألها :

ـــ وما سبب تشريفك لى بذلك يا أرقّ المخلوقات ؟

بدت نظرة خبيثة فى عينى (سونيا) ، وهى تنظر فى عينى (حافظ) مباشرة ، قائلة فى بطء :

ـــ إننى أميل إلى غروب الشمس فى قلب الصحراء يا سيِّدى .

ازدادت دهشة (حافظ) وهو يحدِّق فى وجهها ، ثم لم يلبث أن أطلق ضحكة عالية مجلجلة ، وهو يهتف :

ـــ يا للشيطان !! إنها كلمة السِّر .. لَمْ أتصوَّر مطلقًا أن تحمل فتاة رائعة الجمال مثلك شحنة المخدرات إلى هنا .. إنك أجمل مندوب وقعت عليه عيناى ، منذ انغماسى فى هذه التجارة .

ثم توقَّف فجأة ، وعاوده الحذر وهو ينظر فى عينيها قائلًا :

ـــ ولكن .. إن موعد التسليم المتفق عليه هو منتصف الليل ، والشمس غابت توًّا فقط .

أشعلت (سونيا) سيجارة رفيعة بين شفتيها الجميلتين ، وهى تقول فى حسم :

ـ هناك بضعة أمور أدت إلى تغيير موعد التسليم يا سيِّد (حافظ) .

نظر إليها فى شك وتساؤل ، فأردفت فى هدوء وهى ترقب ملامحه :

ـ أمور تتعلق بضابط مخابرات مصرى ، يُدْعَى (أدهم صبرى) .

تفجَّرت دهشة (حافظ) بعد هذه العبارة ، وتملَّكه غضب هائل وهو ينقل بصره بين رجاله قائلًا :

ـ رائع يا جميلتى .. هذا يؤكد وجود خائن بين رجالى .

قالت (سونيا) فى حِدَّة لا تتفق وجمالها الصارخ :

ـ دَعْكَ من هذه السخافات يا سيِّد (حافظ) ، وأخبرنى أين هو هذا الرجل ؟

عضَّ (حافظ) شفتيه ، وهو يقول فى بطء :

ـ لقد هرب يا (سارة) .. خدع أحد رجالى ، ونجح فى الفرار .

شحب وجه (سونيا) فى شدة ، وهى تغمغم محتدَّة :

ـ هرب ؟!.. كيف ؟

ثم انفجرت فجأة فى غضب :

ـ كيف تسمحون له بالهرب ؟.. كيف ؟

أشعل (حافظ) سيجارته بدوره ، وهو يقول فى عصبية :

ـ إنه لن يذهب بعيدًا .. ثم إنه ترك لدينا ما يجبره على العودة .

سألته (سونيا) فى اهتمام :

ـ ترك ماذا ؟

أجابها وهو ينفض رماد سيجارته فى توتُّر :

ـ ترك زميلته فاقدة الوعى ، وهرب كالجبان .

أشرق وجه (سونيا) ، وهى تهتف فى فرح :

ـ زميلته ؟!.. خطأ أيها الرجل .. ما دام (أدهم صبرى) قد ترك زميلته ، فهو يخطِّط للعودة ولا شك ، فهذا الرجل يمتلك قدرًا من الشهامة ، يفُوق ما لدى رجال الأرض

جميعًا .. دعْنى أرى هـذه الفتـاة فـورًا يا سـيِّد (حافظ) .

سألها (حافظ) فى دهشة :

ــ وماذا ستفعلين بها يا (سارة) ؟

تألّق فى عينيها بريق وحشىّ مخيف ، وهى تقول فى مزيج من القسوة والشماتة :

ــ إنه مرتبط بها عاطفيًّا ، ولا يحتمل أن يمسّها بشرٌ بسوء .. ولكننـى سأجبره بواسطتها على الظهـور والاستسلام .. صدِّقنى يا سيِّد (حافظ) .. إن (أدهم صبرى) مستعد تمامًا لتسليم نفسه ككبش فداء إلى المذبح فى مقابل إنقاذها ، وهذه هى الورقة الرابحة التى سأكسب بها المباراة .

* * *

باسل
Www.dvd4arab.com

٧ ــ الرَّهينة المعذَّبة ..

اتسعت عينا (منى) دهشة ، حينما وقع بصرها على وجه (سونيا) ، التى تُطِلّ من عينيها نظرات القسوة والتشفِّى ، فاحتمال دخول (الموساد) إلى العملية لم يكن واردًا على الإطلاق حتى كاحتمال ضئيـل ، وارتجف جسدهـا حينما سمعت أفعى (الموساد) تقول فى هدوء مخيف :

ــ إنها هى .. رفيقة الشيطان المصرى الدائمة .

بذلت (منى) مجهودًا خارقًا لتتمالك أعصابها قائلة :

ــ تقصدين أننى كنت رفيقته الدائمة ياشيطانة .

ابتسمت (سونيا) فى شراسة قائلة :

ــ وما زلت يا عزيزتى (منى) .

قالت (منى) فى هدوء :

ــ لقد لقى (أدهـم) حتفـه تحت ثلوج سويسرا ، وأعتقد أنك أكثر من يعرف ذلك .

أطلقت (سونيا) ضحكة شيطانية ، وقالت :

ــ كذب يا عزيزتى .. أنت تعملين بصحبته دائمًا .

استعارت (منى) ابتسامة (أدهم) الساخرة ، وهى تقول :

ــ وهل كنت تريدين مِنّى التوقُّف عن العمل حينما يموت ؟

وفجأة .. هوت (سونيا) بكفّها على وجه (منى) ، فى صفعة هائلة ، وهى تصرخ فى وحشية :

ــ أريد الحقيقة أيتها المصرية .

سال خيط من الدماء من جانب فم (منى) ، ونظرت إلى (سونيا) فى كراهية ، ثم بصقت على وجهها بغتة .. وارتسم الغضب على وجه (سونيا) عارمًا ، وفوجئ بها الجميع تنتزع سيجارتها من شفتيها ، وتغرس طرفها المشتعل فى ذراع (منى) ، التى صرخت متألمة ، وحاولت فى عناد وغضب التخلّص من قيودها ، على حين أمسك (حافظ) ذراع (سونيا) ، قائلًا فى خشونة :

ــ كفى يا (سارة) .. إنها مجرد امرأة .

ابتسمت (منى) فى سخرية ، وقالت :

ــ (سارة) ؟!! .. هل خدعتك هذه الأفعى بجمالها الفتان ؟.. إن تلك الدُّمية الجميلة التى تقف أمامك تُدْعَى (سونيا جراهام) .. واحدة من ملكات التجسُّس فى العالم ، لا تفُوقها سوى (ماتا هارى) فى الحرب العالمية الثانية .

قالت (سونيا) فى مزيج من القسوة والحِدَّة :

ــ اصمتى أيتها المصرية ، قبل أن أنزع لسانك من حلقك .

تدخَّل (حافظ) ، قائلًا فى خشونة :

ــ لحظة يا (سارة) أو يا (سونيا) ــ أيهما كان اسمك الحقيقى ــ إن ما تقوله المصرية يهمُّنى سماعه .

قالت (سونيا) فى عصبية ، وهى تشعل سيجارة أخرى :

ــ إنها لا تنطق إلا بالأكاذيب .

نهرها (حافظ) فى حِدَّة قائلًا :

ـ اتركى لى إقرار الحقائق والأكاذيب يافتاة ، أعتقد أننى قادر على ذلك .

أسرعت (منى) تقول :

ـ ألَمْ تكن تعلم أن جميلتك هذه واحدة من أشهر ضباط (الموساد) ؟

امتقع وجه (حافظ) ، واتسعت عيناه ذعرًا ودهشة ، وهو ينقل بصره بين (منى) التى استكانت لقيودها صامتة ، و (سونيا) التى أخذت تنفث دخان سيجارتها فى عصبيَّة زائدة ، وقال فى صوت خرج على الرغم منه متحشرجًا :

ـ هل هذا صحيح يا (سونيا) ؟

قالت (سونيا) فى عصبية :

ـ وماذا فى ذلك ؟ .. من تظن كان يزوِّدك بالمخدرات طوال هذا الوقت ؟

خرج صوت (حافظ) جزعًا ، وهو يقول :

ـ (الموساد) ؟! .. أكنتم تزوِّدوننى بالمخدرات منذ البداية ؟ .. ولكن لماذا ؟

استعادت (سونيا) هدوءها ، وهى تقول :

ـ مقابل بضع معلومات تخرج من بين شفتيك عفويَّة ، وتدلّنا على مواطن الضعف فى جهاز المخابرات المغربى .

صمت (حافظ) لحظة يتأمَّل (سونيا) فى دهشة ، ثم انفجر صارخًا :

ـ خيانة !! هل كنت أخون دولتى دون أن أدرى ؟ .. هذا مستحيل .

ثم انهار فوق مقعد قريب ، ودفن وجهه بين كفيَّه ، على حين قالت (سونيا) ، وقد عادت إليها عصبيتها :

ـ وماذا فى ذلك ؟ .. أَلَمْ تثر ثراءً فاحشًا من الهيروين الذى نرسله إليك باستمرار ؟ .

رفع (حافظ) إليها رأسه فى حدَّة ، وقال :

ـ هل تريدين منِّى أن أثرى من خيانة دولتى ؟ .. هذا مستحيل !!

تدخَّلت (منى) ، قائلة فى حنق :

ــ لا يوجد فارق بالفعل يا سيِّد (حافظ) ، فنشر السُّموم والمخدرات بين شباب وطنك ، لا يفرق مطلقًا عن الخيانة ، فكلاهما يدمِّر المجتمع سواء من داخله أو خارجه .. لا فارق مطلقًا .

صرخت (سونيا) ، وهى تصفع (منى) فى قوة :

ــ كفى أيتها الماكرة .. كفى .

أمَّا (حافظ) فقد ظلَّ يحدِّق فى وجه (منى) لحظة ، اعتملت فيها عوامل شتى فى أعماقه ، وظهر الصراع على ملامحه واضحًا ، ثم لم تلبث أساريره أن عبَّرت عن عزم قوىّ ، وهو يقول فى قوة :

ــ صدَقْتِ أيتها المصرية .. لا فارق .

وعقد كفَّيه خلف ظهره ، مواجهًا (سونيا) فى حسم ، قائلًا :

ــ لست مستعدًا للتعاون مع أعداء بلادى يا سيِّدة (سونيا) .. كما لن أتسلَّم شحنة السُّموم الجديدة هذه ، وسأكتفى بالسَّماح لك بمغادرة قلعتى سالمة ، دون تسليمك للسلطات .

نظرت إليه (سونيا) فى دهشة ، لم تلبث أن تحوَّلت إلى السخرية ، وهى تقول :

ــ هل تأثرت إلى هذا الحدّ بكلمات تلك المعتوهة ؟

قال (حافظ) فى حسم وهدوء :

ــ لقد انجابت عن عينى غشاوة صنعها المال اللعين يا (سونيا) .. لقد كنت يومًا من المعاونين لأجهزة مخابرات بلادى ، وأنا لم أصل بعد إلى الحدِّ الذى ينتفى فيه انتمائى إلى درجة الخيانة .

ازدادت السخرية فى ملامح (سونيا) ، إلى حدٍّ أدهش (حافظ) ، بالإضافة إلى نظرة ذهول بدت فى عينى (منى) ، وهى تحدِّق فى شىء ما خلفه ، ممَّا دفعه إلى الالتفات ، واتسعت عيناه دهشة بدوْره ، فقد رأى رجُليه (خالد) و (بن هاشم) يصوِّبان إليه مدفعيهما الرشاشين ، وسمع (خالد) يقول فى هدوء ، موجهًا حديثه إلى (سونيا) :

ــ هل أطلق النار عليه يا سيِّدتى الضابطة ؟

* * *

٨ ـ قلب الخطـر ..

شحب وجه (حافظ) حتى حاكى وجوه الموتى ، وهو يغمغم فى صوت أقرب إلى الانهيار :

ـ هل يخوننى الجميع ؟

أشعلت (سونيا) سيجارتها ، وهى تقول فى عجرفة :

ـ أنت الخائن الوحيد أيها المغربى ، أما (خالـد) و (بن هاشم) ، فهما من رجال (الموساد) المخلصين .

لم يزد (حافظ) على أن غمغم فى ذهول :

ـ يا إلٰهى !!

قالت (منى) فى حدَّة :

ـ هذا هو جزاء الشرّ دائمًا يا سيِّد (حافظ) .. لا يلبث الخائن أن يتحوَّل إلى ألعوبة فى يد الشيطان .

استدارت إليها (سونيا) ، قائلة فى حِدَّة مريرة :

ـ كُفِّى عن فلسفتك الحمقاء هذه أيتها المصرية وإلَّا مزَّقتك إربًا .

تبادلت (منى) معها نظرات تفيض بالتحدِّى ، حتى أن (سونيا) أشاحت بوجهها ، فى نفس اللحظة التى قال فيها (خالد) :

ـ هل أطلق النار على كليهما يا سيِّدتى ؟

هزَّت (سونيا) رأسها نفيًا ، وقالت :

ـ كلَّا يا (خالـد) .. علـيك أن تسجـن (حافظ) ، فسوف نحافظ على حياته ؛ كى نقدِّمه كبش فداء فى النهاية .

ثم التفتت نحو (منى) ، وابتسمت فى شراسة مُسْتَطْرِدة :

ـ أمَّا عن رفيقة الشيطان المصرى هذه ، فإنى أعِدّ لها برنامجًا حافلًا ، سيجبر (أدهم صبرى) على الزَّحف على ركبتيه مستسلمًا .. وستَرَوْنَ .

* * *

لم يكد الظلام يحيط بالمنطقة إلَّا من أضواء القلعة ، حتى انطلق (أدهم) نحوها فى خفَّة القط ، وهو يضم المدفع الرشاش إلى صدره فى عناية ، إلى أن أصبح على بعد عشرين مترًا منها ، فاختفى خلف تبَّة رمليَّة ، وأخذ للمرة الألف يدرس مداخل القلعة ، وارتفاع أسوارها ، وهو يشعر بمرارة يغصّ بها حلقه .. فقد كانت القلعة تبدو منيعة للغاية ، إلَّا من نخلة واحدة تمتد إلى أسفل حافة السور الشرقى بثلاثة أمتار ، فغمغم ساخرًا .

ـــ لقد أحسنت اختيار حصنك يا (حافظ بن باهى) .

وهنا لمح (أدهم) حركة دائبة عند سور القلعة الغربىّ ، فزَوَى ما بين حاجبيه وهو يحاول فهم ما يحدث ، ورأى رجال (حافظ) منهمكين فى رفع جسد ما إلى أعلى نقاط السور الغربى ، ثم يلقونه خارجًا بحبل غليظ ، وبدا له الجسد مميَّزًا مألوفًا ، فأخرج منظاره المقرِّب ، ووضعه فوق عينيه ، ونظر إلى هناك .. ولكنه لم يلبث أن شعر بنيران تتوهَّج فى قلبه ، وببغض هائل يجتاح عروقه ، عندما عرف

هذا الجسد .. كانت زميلته (منى) مدلَّاة من سور القلعة ، ومقيَّدة بحبل غليظ ، وجسدها يحتك بالسور فى قوة ، والألم يبدو واضحًا على محيَّاها ...

وقبل أن يتحرَّك (أدهم) ، ارتفع صوت (سونيا جراهام) عبْرَ مكبِّر صوتى ، تردَّد صداه فى أرجاء الصحراء ، وهى تقول فى مزيج من القسوة والشراسة :

ـــ استمع إلىَّ جيِّدًا أيها الشيطان المصرىّ .. أنا (سونيا جراهام) ، ولا حاجة بنا للتعارُف ، وأنا أعلم جيِّدًا أنك تختبئ فى مكان ما هناك .. وأعلم أيضًا أنك قد رأيت ما أفعله بزميلتك ، وهذا ليس سوى البداية .

ثم رآها تسكب سائلًا فوق جسد (منى) ، التى صرخت فى رعب ، قبل أن تُرْدِف (سونيا) :

ـــ هذا السائل هو البنزين .. وهو كما تعلم سائل سريع الاشتعال للغاية ، وأنا أعرض عليك عرضًا سخيًّا .

وصمتت لحظة ، قبل أن تستطرد فى سخرية :

كانت زميلته (منى) مدلاة من سور القلعة ، ومقيدة بحبل غليظ ..

ـــ فإمَّا أن تستسلم بلا قيد أو شرط ، أو تتحوَّل زميلتك إلى شعلة من النار بعد عشر دقائق على الأكثر .

صرخت (منى) فى قوة وشجاعة :

ـــ لا تستسلم يا زميلى .. إنهم سيقتلوننا على أية حال .

أطلقت (سونيا) ضحكة شرسة عالية عبْرَ مكبِّر الصوت ، وقالت :

ـــ عليك أن تختار يا شيطان المخابرات المصرية .. أمامك عشر دقائق فقط .

تحوَّل الغضب فى أعماق (أدهم) إلى حِمَمٍ من الغيظ والثورة ، على حين تعلَّقت أنظار الجميع بالجسد المدلَّى والمبلَّل بالبنزين .. وفجأة .. تمتم (أدهم) فى خفوت وعزم :

ـــ كلَّا يا (سونيا) .. لن يستسلم (أدهم) مطلقًا .. إنما أنت بنفسك ، منحتنى الوسيلة المناسبة لاقتحام هذه القلعة الحصينة .. مرة أخرى ستهزمك أساليبك المسرحيَّة أيتها الشيطانة .

* * *

عندما تحرَّك (أدهم) نحو القلعة ، كان قد حسم أمره تمامًا ، مستغلًّا الأسلوب المسرحىّ الذى اتبعته (سونيا جراهام) فى تهديده ، فقد جذب الموقف انتباه الجميع إلى السور الغربى ، حيث تعلَّق جسد (منى توفيق) ، بحيث بات السُّور الشرقى بلا مراقبة على الإطلاق ، وكانت هذه هى الفرصة المثالية لرجل يمتلك سرعة المبادرة ، والقدرة على اتخاذ القرار المناسب السريع مثل (أدهم صبرى) ..

فقد ثبَّت مدفعه الرشاش على كتفه ، وأسرع نحو النَّخلة التى تجاور السُّور الشرقى ، يتسلقها فى خِفَّة ورشاقة ، برغم صدره المحترق وذراعيه المتسلختين ، من أثر شمس الصحراء ، حتى وصل إلى نهايتها ، فملأ صدره بنفس عميق ، واستجمع قواه ، وقفز قفزة أقل ما توصف به أنها شيطانية مستحيلة ، دفعتها إرادته الفولاذية إلى تخطِّى قانون الجاذبية الأرضية ، وقوانين المهارة البشرية ، لترتفع به ثلاثة أمتار كاملة ، حتى تعلَّقت كفَّاه بحافة السُّور الشمالى ، واحتكَّ جسده بالسور احتكاكة مؤلمة ، كادت تفلت لها ذراعاه ، لولا أنه بذل جهدًا خارقًا لاحتمال الألم ..

وكتم آهة كادت تفلت من بين شفتيه ، وظلَّ معلَّقًا فى السور جزءًا من الثانية ، ثم قبض عضلات ذراعيه وساعديه ، وارتفع إلى حافة السور ، وصعد إليها ، ثم رقد فوقها يلهث من شدة ما بذله من مجهود ، يفُوق قدرات البشر ، حتى استعاد قواه ، وتحسَّس صدره الذى تفجَّرت منه عشرات النقاط الدامية المتسلِّخة ، ثم قفز فى خفَّة ، بحيث أصبح داخل قلعة (حافظ بن باهى) ..

ونظر (أدهم) فى ساعته ، وتنهَّد فى ارتياح ، فقد استغرق منه هذا أربع دقائق فقط ، وبقيت لديه ست دقائق للسيطرة على الموقف ، وإنقاذ زميلته ، فتحرَّك فى سرعة وخِفَّة يدور حول جانب الحديقة ، فوجد نفسه فجأة وجهًا لوجه مع أحد رجال (حافظ بن باهى) .. ورأى الرجل يحدِّق فى وجهه فى دهشة ، ثم يرفع فوَّهة مدفعه الرشاش نحوه ، ويده تسرع إلى الزِّناد .

* * *

٩ ــ صراع الصحــراء ..

جلس الرائد (محمد) فى حجرة مكتبه بمبنى المخابرات المغربية ، يشدُّ أنفاس سيجارته المحليَّة فى توتُّر ، وهو يحاول تركيز أفكاره فى قراءة بعض التقارير القديمة ، حتى سمع صوت صديقه الرائد (عصام) يقول ضاحكًا :

ــ ماذا بك يا (محمد) ؟.. لقد راجعت هذه التقارير أكثر من عشر مرات حتى الآن .

رفع إليه الرائد (محمد) رأسه فى دهشة ، وعاد يتطلَّع إلى الأوراق ، وهو يقول فى شرود :

ــ أحقًا ؟!!

ثم نحَّى الأوراق جانبًا ، ونهض فى عصبيَّة واضحة ، يسير فى أرجاء المكتب ، مما دفع زميله (عصام) إلى سؤاله فى دهشة متزايدة :

ــ ماذا بك يا (محمد) ؟.. لِمَ تبدو عصبيًّا متوتِّرًا إلى هذا الحدّ ؟

قال الرائد (محمد) فى ضيق :

ــ يضايقنى ألَّا أعلم ما يحدث فى هذه اللحظة ، لسيادة العقيد المصرى (أدهم صبرى) ، وزميلته النقيب (منى توفيق) .. لقد أصرَّ الرجل على عدم حمل أية أجهزة اتصال ، حتى لا يؤدِّى ذلك إلى كشف أمرهما ، ولو بسبيل الصُّدْفة .

هزَّ (عصام) كتفيه ، قائلًا :

ــ إننى أثق فى هذا الرجل ثقة مطلقة ، فهو يمتلك مهارات غير عاديَّة ، تؤهِّله لتبوُّؤ المركز الأوَّل فى عالم المخابرات .. هل تذكر قضية (مونت كارلو) ؟.. لقد تغلَّب على (أيمن بن على) بمهارة مذهلة أدهشتنا نحن ، برغم التدريبات المعقَّدة التى كنا نحصل عليها فى ذلك الحين .

غمغم (محمد) فى صوت خافت :

ــ نعم يا (عصام) .. أذكر ذلك جيِّدًا .

ثم اتسعت عيناه فجأة ، وبدا فيهما ذعر شديد ، وهو يهتف :

ــ ربَّاه !! التدريبات !!.. كيف نسيت ذلك ؟

ثم اندفع أمام دهشة زميله إلى صيوان كبير ، وفتحه وهو يقول فى جزع :

ــ كيف لم أنتبه إلى ذلك ؟. يا لى من تعس !! لقد عرَّضتهما لخطر كبير .

واختطف بضعة ملفَّات حملها إلى مكتبه ، فى نفس اللحظة التى صاح فيها (عصام) ، وقد انتقلت إليه عدوى الجزع :

ــ ماذا هناك يا (محمد) ؟.. أخبرنى بالله عليك .

لم يجبه الرائد (محمد) فورًا ، بل انهمك فى البحث عن ملفٍّ خاص ، لم يلبث أن عثر عليه ، وأخذ يقلِّب أوراقه فى لهفة ، ثم انهار فوق مقعده مغمغمًا :

ــ يا إلٰهى !! هذا ما كنت أخشاه .. لقد أوردتهما مورد التَّهلُكة بغبائى وإهمالى .

أسرع إليه (عصام) هاتفًا :

ــ ماذا حدث بالله عليك ؟

رفع إليه (محمد) رأسه ، وقال فى انهيار :

ــ لقد كان (حافظ بن باهى) هو مدرِّبنا الأول فى أثناء (عملية مونت كارلو) ، وهذا يعنى أنه يعرف (أدهم صبرى) جيِّدًا .

ثم نهض فجأة ، متعلِّقًا بذراع زميله هاتفًا :

ــ إنهما فى خطر بالغ يا (عصام) .. لا بدَّ أن نحاول إنقاذهما ، حتى ولو أدَّى الأمر إلى فشل العملية بأكملها .

أُرْتِجَ على (عصام) ، وهو يقول :

ــ ولكن المسئولين لن يسمحوا و ....

اختطف (محمد) سمَّاعة الهاتف ، صائحًا :

ــ سأستصدر أمرًا من جلالة الملك شخصيًّا .. إنه لن يسمح بتعريض (أدهم صبرى) للخطر ، حتى ولو فشلت العملية برمَّتها .

وأردف ، وهو يدير قرص الهاتف فى توتُّر :

ــ المهم ألا نكون قد تأخَّرنا .. رحماك يا إلٰهى !!

* * *

نعود الآن إلى (أدهم) ، الذى تركناه فى اللحظة التى وجد نفسه فيها يواجه أحد رجال (حافظ بن باهى) ، الذى يصوِّب إليه فوَّهة مدفعه الرشاش استعدادًا لإطلاق النيران ...

فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها فوَّهة المدفع الرشاش ، نشطت حواس (أدهم) للعمل ، فتحرَّكت ساقه فى سرعة مذهلة ، تركل المدفع الرشاش ، وتطوِّح به بعيدًا ، ثم اندفعت قبضته فى خطٍّ مستقيم كقذيفة مدفع إلى فكِّ الرجل لتهشِّمها فى صوت مكتوم ، وانطلقت القبضة الأخرى محطِّمة ترقوة الرجل ، الذى سقط جثة هامدة ، دون أن يصدر منه صوت مسموع ..

وفى خِفَّة وسرعة ، نزع (أدهم) ثياب الرجل ، وارتداها فى عجلة ، ثم حمل مدفعه الرشاش ، وانطلق يعدُو نحو السور الغربى ، وهو يغمغم فى حنق :

ـ ويل لك يا (سونيا) لو مَسَسْتِ زميلتى بأدنى سوء :

وفى نفس اللحظة ، كانت (سونيا جراهام) تلقى نظرة على ساعتها ، قائلة :

ـ لم يعد أمامه سوى دقيقة واحدة .. هذا الرجل عنيد للغاية .

ثم أمسكت مكبِّر الصوت ، وصاحت فى لهجة متوعِّدة :

ـ بقيت دقيقة واحدة يا مستر (صبرى) ، ولتعلم أننى لن أمنحك مهلة أخرى .. عليك أن تستسلم وإلَّا ....

وفى هدوء أشعلت قداحتها مستطردة :

ـ أنت تعرفنى جيِّدًا يا شيطان المخابرات المصرية .. إننى لن أتردَّد لحظة واحدة .

أغمضت (منى) عينيها ، وارتجف جسدها ، وهى تتخيَّل الميتة البشعة التى تنتظرها حرقًا ، ولكنَّها فى الوقت نفسه أخذت تبتهل إلى الله أن يبقى على حياة (أدهم صبرى) ، وازداد ارتعادها حينما سمعت (سونيا) تقول فى غضب :

ــ بقيت عشرون ثانيـــة أيها الشيطـــان .. إنك تتحدّانى .. سأشعل النار فورًا .

برغم معرفتهما بالبشاعة التى تختفى تحت قناع الجمال الزائف لـ(سونيا جراهـام) ، إلّا أن جسدَىْ (خالـد) و (بن هاشم) ارتجفا فزعًا ، حينما رأياها تقترب بالقدّاحة المشتعلة من الحبل المبلل بالبنزين دون تردُّد ، وانبعثت فى جسد الجميع رعدة مفاجئة ، حينما انطلقت رصاصة من مكان ما أصابت القدّاحة ، وألقت بها بعيدًا ..

استدار الجميع إلى مصدر الطلقة ، وارتجفت (سونيا جراهام) ، وانتفض جسدها فى قوة ، حينما طالعها وجه مألوف ، وسمعت الصوت الساخر المخيف يقول :

ــ هأنذا أمامك يا (سونيا) .. ماذا تريدين أن تفعلى ؟

* * *

١٠ ــ شيطانان من الشرق ..

عجيبة هى أعماق البشر .. فبرغم أن (سونيا جراهام) حضرت من الشرق خصيِّصًا ، للتأكد مِمّا إذا كان (أدهم صبرى) على قيد الحياة أم لا ، إلّا أنها حينما رأته أمامها ، شعرت بإحباط شديد يكتسح كيانها ، وبحنق شديد يجتاح نفسها ، إلى درجة منعتها من البكاء بصعوبة بالغة .. فمنذ أن استقلّت طائرتها من (تل أبيب) إلى (الرباط) وحتى هذه اللحظة ، كانت تمنّى نفسها بوجود خطأ ما فى الأمر ، بأن (أدهم صبرى) الملقب بـ (رجل المستحيل) قد لقى حتفه بالفعل تحت ثلوج (سويسرا) .. بل ويمكن القول إنها حينما لم يستجب (أدهم) لتهديدها ، شعرت بسعادة خفيَّة صنعها الإحساس بالنصر ، وتحطَّمت بغتة عندما طالعها وجه (أدهم) ، الملىء بالإصرار والقوة والسخرية ، وعيناه اللتان تشعّان ببريق حازم مخيف ، دفع (خالد) و (بن هاشم)

إلى إلقاء سلاحيهما ، ورفع أيديهما فوق رءوسهما فى استسلام وخوف ، أمّا (سونيا) فقد انحدرت من عينيها دموع المرارة ، وهى تهتف فى حنق :

ـــ إذن فأنت حىّ !! .. لقد خدعتنا مخابراتكم بعد حادث (سويسرا) .

مطّ (أدهم) شفتيه ، وهو يقول فى سخرية :

ـــ إننا ننجح فى خداعكم دائمًا يا عزيزتى (سونيا) .

انفجرت (سونيا) بضحكة هستيرية عالية ، وهى تقول :

ـــ وما زلت تتمتع بروح السخرية أيضًا ؟.. يالك من رجل !!

كان الانهيار واضحًا فى صوتها وتلويحها بذراعيها ، وهى تصرخ :

ـــ أنت لست رجلًا عاديًّا .. أنت شيطان .. شيطان .

قطّب (أدهم) حاجبيه ، وهو يقول فى هدوء :

ـــ كفى يا (سونيا) .

وفجأة .. استلت (سونيا) من طيّات ثوبها الأنيق خنجرًا حادًّا ، وقفزت نحو الحبل الذى تدلّت فى نهايته (منى) ، وهى تضحك فى وحشية صائحة :

ـــ ولكن المباراة لم تنته بعد يا (رجل المستحيل) .

توتّرت أصابع (أدهم) فوق زِناد مدفعه الرشاش ، وهو يقول :

ـــ أنت تلعبين بالنار يا (سونيا) .. يمكننى تحويلك إلى مِصْفاة ، بضغطة بسيطة على زِناد مدفعى الرشاش .

ضحكت (سونيا) فى شراسة ، قائلة :

ـــ افعل يامستر (أدهم) .. ولكننى أعدك أن أجد الوقت الكافى لقطع هذا الحبل ، بحيث تسقط زميلتك الحبيبة من ارتفاع سبعة أمتار .

ظهر الرعب فى عينى (خالد) و (بن هاشم) ، حينما رفع (أدهم) فوّهة مدفعه الرشاش نحو الجميع ، قائلًا فى صرامة :

ـــ إننى أحذّرك يا (سونيا) .

وفجأة .. شعر (أدهم) بالخطر ، وأطلقت غريزته صيحة تحذير قوية ، حينما برق فى عينى (سونيا) بريق فوز مفاجئ، وهى تنظر إلى نقطة ما خلفه ، وأحس بأعماقه تدفعه دفعًا إلى الانحناء نحو الجانب الأيسر ، ولم يكد يفعل حتى مرقت إلى يمناه رصاصة قوية ، شقّت الهواء قبل أن تستقر خطأ فى كتف (بن هاشم) ، الذى اختلط صراخه بصيحة (سونيا) الوحشية :

ـ اقتلوه يا رجال .. مزّقوه إربًا برصاصاتكم .

واستدار (أدهم) بسرعة البرق ، ليجد نفسه فى مواجهة خمسة رجال يصوّبون نحوه مدافعهم الرشاشة ، وقد علت وجوههم نظرات شرسة متوحشة .

* * *

يقول رجال المخابرات المصرية : إن جسد (أدهم صبرى)اعتاد تلقّى الرصاصات ، حتى أنه لم يعد يأبه للألم الذى تصنعه إبّان اختراقها جسده .. يقولون ذلك مازحين ، ولكنهم فى بعض المواقف يتساءلون عمّا إذا كان ذلك مزاحًا أم لا ..

ففى نفس اللحظة التى استدار فيها مواجهًا الرجال الخمسة ، انطلق من فوّهات مدافعهم الرشاشة سيل من الرصاصات ، كان نصيبه منها ثلاثًا ،اخترقت إحداها ذراعه اليسرى ، وغابت الثانية فى أعلى فخذه اليمنى ، على حين مرقت الثالثة بين باطن ذراعه اليمنى وصدره ، لتصنع جرحًا غائرًا فى الجانب الأيمن من الصدر ،وإن لم تخترقه أو تحطّم منه ضلعًا واحدًا ..

ولو أن الرصاصات الثلاث أصابت رجلًا آخر لسقط منهارًا من شدة الألم والمفاجأة ، ولكن (أدهم صبرى) تصرّف بشكل مختلف .. مختلف تمامًا .. فعلى العكس من ذلك ، بدا وكأن الرصاصات لم تمسّه مطلقًا ، أطلق نيران مدفعه الرشاش فى جسارة وحنكة ومهارة ، مصيبًا ثلاثة من الرجال الخمسة فى مقتل ، مُطيحًا بمدفعى الرجلين الباقيين ، ثم هوى بكعب مدفعه على رأس أحد الرجلين ليفقد هذا وعيه فى الحال ، ودار على عَقِب قدمه اليسرى ، مصوّبًا لكمة ساحقة إلى الأخير ، الذى تهشّم أنفه ،

ودارت الدنيا أمام عينيه قبل أن يسقط فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها (خالد) نحو (أدهم) ، وقد أغرته جراح هذا الأخير بالانتصار والثأر لنفسه ، من هزيمته السابقة على يد الشيطان المصرى .

نجح (خالد) بالفعل فى الإطاحة بمدفع (أدهم) الرشاش ، بركلة ماكرة قوية ، ثم هوى بلكمة أودعها كراهيته على ذراع (أدهم) اليسرى المصابة ..

شعر (أدهم) بألم شديد فى ذراعه اليسرى ، ولكن الألم ولّد فى نفسه مزيدًا من القوة والعزم ، فثنى ركبته ليغوص متفاديًا لكمة أخرى وجّهها إليه (خالد) ، ثم اندفعت قبضته اليمنى فى معدة هذا الأخير ، وارتفعت ساقه اليسرى فى مرونة عجيبة ، لتركل قدمه وجه (خالد) فى قوة ، حطّمت أنفه ، وأخلّت بتوازنه .. ولم يكد يحاول استعادته حتى انفجرت قبضة (أدهم) اليمنى ثلاث مرات متتالية سريعة فى وجه (خالد) وعنقه ، سقط بعدها هذا الأخير ، وهو يئن من الألم ، على حين التقط (أدهم) مدفعه

الرشاش فى خفّة ، وانتصب واقفًا مصوّبًا إيّاه إلى (سونيا) ، التى صاحت فى ذهول :

ـــ يا للشيطان !! .. إنك تفوق ما تصوّرته بكثير .. كيف فعلت كل هذا ، وجسدك محشوّ بالرصاص ؟

وبدلًا من أن يجيبها (أدهم) ، قال فى غضب وحزم :

ـــ ابتعدى عن الحبل يا (سونيا) .

أطلقت (سونيا) ضحكة متوتّرة قصيرة ، وهى تقول :

ـــ حتى تنتصر هذه المرة أيضًا أيها الشيطان المصرى !؟ . هذا محال .. إننى أفضل الموت على هذا .

وفى حركة مفاجئة سريعة .. قطعت (سونيا) الحبل ، ورأى (أدهم) زميلته تهوِى من ارتفاع سبعة أمتار ، وهى تطلق صرخة فزع عالية .

١١ ــ الغضب المدمِّـر ..

أسرع الرائد (محمد) الخُطَا فوق مهبط الطائـرات (الهليوكوبتر) التابعة للقوات الجوِّية المغربية ، يتبعه سبعة من رجال الكوماندوز المغربى ، واقترب من طائرة مروحيَّة ، بدا على قائدها أنه ينتظر قدومهم ، ولوَّح له بورقة فى يده وهو يقول فى عجلة :

ــ لدينا أمر من جلالة الملك شخصيًّا ..

قاطعه الطيَّار فى هدوء :

ــ إننى انتظركم يا سيِّدى .. أسرعوا بالصُّعود ، فأنت تعلم صعوبة الإقلاع الليلى ، ممَّا يضطرنـا إلى التحـرُّك بصورة أبطأ .

قفز رجال الكوماندوز السبعة داخل الطائرة ، واتخذ الرائد (محمد) مقعده إلى جوار الطيار ، الذى أدار مراوح طائرته ، وهو يسأل فى هدوء :

ــ أهِىَ عملية انتحارية جديدة ؟.. كنت أظن زمن الحروب قد ولَّى .

أجابه الرائد (محمد) ، وهو يراقب عملية الإقلاع البارعة التى قام بها الطيار :

ــ الحروب الخارجية فقط يا صديقى ، ولكننا اليوم نعلن حربًا على أكبر مهرِّب للسُّموم البيضاء .

مطَّ الطيار شفتيه ، وهو يقول فى اشمئزاز :

ــ ما أدنأ مروِّجى المخدرات هؤلاء !! إنهم يحطِّمـون المجتمع من داخله .. إنهم أسوأ من أعداء البلاد فى الخارج .

قال الرائد (محمد) فى قلق :

ــ نعم إنهم كذلك ، ولكن أسرع بالله عليك ، فقد يقضى أشرّ القوم على خيارهم ، لو أننا تباطأنـا قليـلًا .. أسرع .

* * *

لم يكد (أدهم) يرى (منى) وهى تسقط من هذا الارتفاع ، ويسمع صرختها المفزعة الملتاعة ، التى انقطعت

بغتة حينما ارتطم جسدها برمال الصحراء ، حتى تملّكه غضب هائل مدمِّر ، انبعث فى عروقه ، وحلَّ محل الدّم فى خلاياه ، فأطلق صرخة قوية ارْتجَّ لها المكان ، وارتجف لها جسد (سونيا جراهام) فى رعب حقيقى ، حينما اندفع (أدهم) نحوها صارخًا :

— أيتها المتوحّشة الساديَّة .. أيتها المجنونة .

شهرت (سونيا) خنجرها بأصابع مرتعدة فى وجه (أدهم) ، فى محاولة للدفاع عن نفسها ، ولكن (أدهم) أطاح بالخنجر فى ضربة قويَّة بظهر كفّه اليمنى ، ثم هوَى على وجه (سونيا) بصفعة مذهلة ، ارتَجَّ لها كيانها بأكمله ، قبل أن تتلقَّى عدة صفعات متتالية ، أفقدتها الوعْى ، فسقطت ساكنة ..

انحنى (أدهم) ينظر فى لوْعة إلى جسد زميلته ، التى تمدَّدت ساكنة فوق رمال الصحراء ، وهو يغمغم فى أسًى :

— (منى) .. يا إلهى !! إن جسدها ساكن تمامًا .

ثم التفت فى حِدَّة ، حينما تناهى إلى مسامعه صوت باقى رجال (حافظ) ، وهم يهرعون إلى المنطقة ، التى سمعوا فيها صوت النيران ، وسمع صوت أقدامهم تصعد إلى حيث يقف ، فعاد يلتقط مدفعه الرشاش ، قائلًا فى حزم :

— ويل لكم أيها الأوغاد .. لقد حرمتمونى رفيقتى ، ولن يكون ثمن هذا بأقل من حياتكم جميعًا .

وفجأة .. سمع صوتًا يقول :

— استسلم يا رجل المخابرات المصرى .. إننا نحيط بك من كل صوْب .. لا أمل لك إلَّا الاستسلام .

وبدون أن يجيبهم (أدهم) ، قفز خلف حائل صخرى ، وأطلق نيران مدفعه الرشاش بكل الغضب فى أعماقه ، واشتعلت الحرب فى قلعة الصحراء .

* * *

رفع (حافظ بن باهى) رأسه يصغِى بسمعه إلى صوت القتال الدائر خارج الغرفة ، التى سجنه داخلها رجلاه السابقان (خالد) و (بن هاشم) ، ثم عاد يُولِى

انتباهه إلى ذلك العمل العجيب الذى يقوم به ، وهو يبتسم فى جنون قائلًا :

ـ لقد اشتعلت الحرب بين الجانبين ، وأهمل الجميع وجودى ، ولكنهم سيندمون .

وأطلق ضحكة عجيبة ، قبل أن يردف :

ـ إن هؤلاء الأوغاد لم يعلموا بوجود المخبأ السرِّى ، الذى أحتفظ فيه بمخزونى السابق من المتفجِّرات .. سأنسف القلعة بأكملها فوق رءوسهم .. فليتحقق قول (شمشون) : « علىَّ وعلى أعدائى » ..

وعادت ضحكته الجنونية تجلجل فى المكان ، وهو يوصِّل أجهزة التفجير فى همَّة ونشاط وسرعة .

* * *

اخترقت رصاصة قوية كتف (أدهم) اليسرى ، وشعر بذراعه تتراخى إلى جواره ، وبألمٍ شديد يسرِى فى عنقه ، وجانب رأسه ، ولكنه لم يتوقَّف عن إطلاق رصاصات مدفعه الرشاش فى استبسال عجيب ،

مستخدمًا يمناه وحدها ، حتى فوجئ بتوقُّف مدفعه الرشاش عن العمل ، فانتزع خزانته ونظر فيها ، ثم ألقاها جانبًا وهو يقول فى هدوء :

ـ خسِرْت هذه المرة يا (أدهم صبرى) .. لن يمكنك مقاتلة عشرة رجال مسلَّحين ، وأنت أعزل .

توقَّف إطلاق النار قليلًا ، ثم عاد الصوت يرتفع قائلًا :

ـ إننا نعرض عليك الاستسلام مرة أخرى أيها المصرى .. نحن نعلم أن ذخيرتك قد نفدت .

استلقى (أدهم) خلف الحائل الحجرى فى هدوء ، وتحسَّس إصابة كتفه ، وهو يغمغم فى سخرية :

ـ هرَاء .. يمكنكم أن تأتوا لقتلى ، ولكننى لن أرفع راية الاستسلام ، ما دام بصدرى نفس يتردَّد .

ويبدو أن رسالته وصلت إلى خصومه برغم خفوتها ، إذ غادروا مكامنهم فى حذر ، وهم يقتربون من مخبئه .. وسمع هو صوت اقترابهم ، فغمغم فى تهكُّم مرير :

ـ ها هى ذى النهاية تقترب .. لم أكن أتصورها على هذه الصورة .

راودته فجأة فكرة جنونية ، وهو يتطلّع إلى سور القلعة المواجه له ، فقال محدّثًا نفسه فى صوت غير مسموع :

ـ ماذا لو قفزت إلى الخارج ؟.. إن السور يرتفع حوالى عشرة أمتار فى هذا الجانب ، وأسفله رمال الصحراء ، التى قد تخفّف من وطأة الارتطام.. سيشبه الأمر فرار (مراد بك) من مذبحة القلعة ، التى أعدّها (محمد على) للمماليك .. صحيح أن الأمل ضئيل للغاية ، بكتف محطّمة ، وساق وذراع مصابتين ، ولكن هناك أمل على أية حال ، أما البقاء ساكنًا ، فهذا يعنى نهاية حتمية برصاصات هؤلاء الأوغاد .. كما أنه لا ضرر من المحاولة .

ونهض من مكانه فجأة ، وقد استقر رأيه على إتيان هذه المحاولة الأخيرة ، ولكنه قبل أن يخطو خطوة واحدة ، سمع صوت رصاصة تنطلق ، وشعر بعمود من النار يخترق ظهره ، وتخاذلت ساقاه عن حمله ، ووجد نفسه على الرغم

منه يهوى ساقطًا على الأرض ، وقد وصل جسده إلى ذروة الإجهاد ، وبدت المشاهد مهتزّة أمام ناظريه ، وخُيِّل إليه أنه يرى رجلًا يقترب منه ، ويصوِّب مدفعه الرشاش إلى رأسه ، فعمل جاهدًا على أن يبتسم فى سخرية ، وسمع الرجل يقول :

ـ أنت تتمتع بروح ساخرة للغاية ، حتى فى لحظاتك الأخيرة أيها الرجل .. سأظلّ أبدَ الدهر فخورًا بالرصاصة التى سأطلقها على رأسك الآن .

لم تغب الابتسامة الساخرة عن شفتى (أدهم) ، حتى حينما جذب الرجل صمام الأمان فى مدفعه الرشاش ، وإن بدأ الظلام يكتنف ذهنه ، وخُيِّل إليه أنه يسمع هديرًا قويًّا ، وصوت رصاصة يخترق سكون الصحراء ، ثم أظلمت الدنيا أمامه تمامًا .

* * *

١٢ ــ فى اللحظة المناسبة ..

سنعود فى قصَّتنا خمس دقائق فقط إلى الوراء ، وننتقل لنقص الأمر من داخل الطائرة المروحيَّة التى تقل الرائد (محمد) ، وفريق الكوماندوز المغربى إلى قلب الصحراء ، حيث تقبع قلعة (حافظ بن باهى) ...

كان الرائد (محمد) يقول فى قلق وتوتُّر :

ــ يا إلٰهى !! هناك قتال يدور بالمدافع الرشاشة على سطح القلعة .

قال الطيَّار وهو يزيد من سرعة الهليوكوبتر :

ــ لقد توقَّف القتال الآن .. لقد هزَم أحدهما الآخر .

انقبض قلب الرائد (محمد) ، وهو يخرج مسدسه قائلًا :

ــ فلندع الله أن يكون المنتصر هو جانب الحق .

ثم أشار فى جزع إلى سطح القلعة ، قائلًا :

ــ يا إلٰهى !! إنه العقيد (أدهم) .. لقد أطلق عليه أحد هؤلاء الأوغاد رصاصة فى ظهره .. لقد أصابه فى ظهره .

التقى حاجبا الطيار ، وانبعثت فى داخله عزيمة قوية ، وهو يقول :

ــ إنه لم يَمُت بعد ، فها هو ذا أحدهم يصوِّب مدفعه الرشاش إلى رأسه .. يا للأوغاد !!

دفع الرائد (محمد) نافذة الهليوكوبتر ، وصاح فى الطيار :

ــ أسرع يا صديقى .. لن نسمح لهم بقتله هكذا .

ارتفع هدير الهليوكوبتر ، وهى تنطلق فوق أسوار القلعة ، ورفع رجال (حافظ) مدافعهم الرشاشة ، يحاولون إصابتها ، وانطلقت من مسدس الرائد (محمد) رصاصة مسدَّدة بإحكام ، اخترقت رأس الرجل الذى يصوِّب فوَّهة مدفعه الرشاش إلى رأس (أدهم) ، فسقط قتيلًا من فوره ، على حين قفز رجال الكوماندوز المغربى فى

جسارة ، ليستقروا فوق سطح القلعة ، وتنطلق نيران مدافعهم الرشاشة واضعة نهاية مؤسفة لشياطين الشرّ فى قلعة الصحراء ..

* * *

لم يكد آخر رجال (حافظ بن باهى) يلقى سلاحه ، ويرفع ذراعيه مستسلمًا ، حتى هبطت الهليوكوبتر فوق سطح القلعة ، وقفز منها الرائد (محمد) ، قبل أن تمسّ عجلاتها الأرض ، واندفع فى جزع نحو جسد (أدهم) المسجّى ساكنًا ، ومال نحوه يفحصه فى قلق ، ثم هتف فى لوعة :

— يا إلهى !! لقد تلقّى جسده عددًا كبيرًا من الرصاصات .. إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة .. لا بدّ من الإسراع .

حرّك (أدهم) شفتيه فى تمتمة خافتة ، فمال الرائد (محمد) بأذنه نحو فم (أدهم) هاتفًا :

— ماذا تقول يا صديقى ؟.. ماذا تريد ؟

بدا المشهد مؤثّرًا أمام أعين رجال الكوماندوز ، وخاصّة حينما رفع الرائد (محمد) رأسه عن جسد (أدهم) ، وأسرع ينظر من فوق السور إلى شىء ما أسفله ، ثم صاح :

— لقد سقطت زميلته أسفل السور .. عليكم بإنقاذها .. أسرعوا .. إنها رغبته .

ثم التفت إلى الطيار ، صائحًا فى جزع :

— أعِدَّ طائرتك للإقلاع فور نقل العقيد (أدهم) ، والنقيب (منى) إليها أيها الطيَّار ، وإنّى آمرك بتخطّى حدود السرعة المسموح بها ، فلا بدَّ أن يصلا إلى أقرب مستشفى ، فى أسرع وقت ممكن .

* * *